

الباب التاسع

برنارد شو في نظر الشرقيين

للكاتب الصيني الكبير س . ا . هسنج

عند ما أتيت إلى هذا البلد ، كان أملى الوحيد أن أرى ثلاث شخصيات هامة هي :
جلا سورثي وباري ورنارد شو .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ مات الأول في مدى شهر واحد من
وصولي إلى لندن ، وأصيب الثاني بمرض عضال أقعده ثم نقل على أثره إلى مستشفى
خاص . أما الثالث فغادر لندن ليزور الصين . فهل سافر إلى هناك ليزورني أوليراني ؟
إذن فيا للأسف ١٩ . ولكنه عندما عاد إلى إنجلترا وتقابلنا ، قال لي بصراحة :

إنه ذهب إلى الصين ليري السور الأعظم ١٩
ثم تحدثت إلى صديق لي ، وصارحته بأن من العسير على الاعتقاد بأن صاحبنا
شو سافر إلى الصين ليري السور الأعظم ، لأن في الصين أربعمائة مليون نفس
تستحق منه أن يراهم ويطلع على أخبارهم . ولا شك أن بينهم نفرا أهم من
السور الأعظم ١ .

وطمأنني صديقي بإقناع فلسفي وجيه فخواه أنني مادمتم في لندن ، فليس
في الصين رجل واحد أهم مني ليراه شو أو ليري غيره ١١
وقد طمأن خاطري هذا الاقتراح الطريف رغم خلوه من الصدق ، وكيف
يكون فيه ذرة من الصدق مثل هذا الخاطر العجيب ١٩ !

وكثيراً ما كنت أسمع من بعض أصدقائي مقدار أهمية مقابلاتهم المتعددة مع
برنارد شو قالوا إنهم فاتحوه وناقشوه في موضوعات هامة ذات شأن خطير .
وأنعجوا به وببلاغته وسرعة بديهته ، حتى أنني وقفت على كل ما كان يدور في مثل

هذه المناقشات ، وعندما سئحت لي الفرصة بالجلوس إلى برنارد شو سألته : هل يذكر مقابلاته لمثل هؤلاء الصيغيين من الكتاب والأدباء ، فسرعان ما هز رأسه بحزن وقال : لا !!

ثم ذكر لي حادثة طريفة فخواها أن شخصا قابله مرة ، وكان كاتباً صينياً ، سلم له نسخة مترجمة لإحدى مسرحياته المشهورة . وقال برنارد شو : إنه صديق لوقاحة الرجل وسلاطة لسانه . وكانت بجواره زوجته و مسر شو ، التي اعتادت دائماً أن تكون ، فأضافت بسرعة : إن هذا الرجل لابد أن يكون يابانياً فعمى بالصيغيين قوم بسطاء متواضعون ،

وهناك رجل آخر في الصين تذكره برنارد شو ، ولكنني لم أسمع منه رأيته فيه . وكان ذلك في احتفال دعى إليه برنارد شو خصيصاً ، حتى قدم إليه استاذ معروف . وعندما قيل له إنه من علماء رجال التربية وكبارها ، هز برنارد شو على يديه وهو يقول : كان الله في عونك ! ،

وقد وصف لي كثيرون من أصدقائي هذه الحادثة الطريفة ، وأبدي كل رأيته فيها بل العجيب أن هذه الحادثة سرعان ما انتشرت وعرفت في جميع أنحاء الصين ، وعلى الأخص في الدوائر الثقافية . ولست أدري إن كان برنارد شو لا يزال يتذكر هذا الرجل أم لا !

من مساوئ الشهرة ، إذا كنت من أربابها ، أن كل إنسان يعرفك أو لا يعرفك يذيع عنك أخباراً كثيرة . وإن يمكنك أنت ، مهما كانت درجة ذكائك ، أن تذكرهم فرداً فرداً ، والحقيقة أن كثيراً منهم لا يعرفونك ، رغم أنهم يعتقدون أنهم يعرفونك تمام المعرفة ... من هنا يكثر القيل والقال ، وتصبح حديث الناس ، كل له رأيه الخاص فتتعدد المتناقضات وتشتاع حولك الأكاذيب !!

وكذلك حال برنارد شو في العالم ، فهناك كتب كثيرة كتبت عنه ، غير آلاف المقالات التي نشرت في الصحف السيارة حوله ، الشيء الذي لا يمكن حصره أو معرفة مداه ..

عند ما يريد أحد مشاهير الرجال أن يخلد نفسه بين مصاف الكتاب العظام فإنه يقدم للعالم إنتاجه الأدبي ، ليضاف إلى مجموعة أعمال غيره من الأدباء المعاصرين والعباقرة . وقد يمكن لذلك الرجل أن يعطى للمؤلف - الذى ينتوى تأريخ حياته باللغة التى يريد بها - صورة واضحة المعالم عن نفسه كأنه يقف أمام رسام أو مثال وهو فى هذه الحالة ، بدل أن يجلس أمام الرسام أو المثال يمد الكاتب بكل ما لديه من معلومات وذخائر ، وعلى ضوء هذه المعلومات يمكن للمؤلف أن يعبر فى أسلوب نادر عن قصة حياة ذلك الرجل العظيم الذى يكتب عنه ..

وهناك مثل مشهور قاله رجل عظيم خواه أن الناس فى هذا العالم ينقسمون إلى قسمين : قسم يعرف الكتاب معرفة حقة ، وقسم لا يعرفه على الإطلاق .

ولكن برنارد شو لا يعتمد بهذا رأى . وقد يكون من الأصح أو الأجدر أن يقال : إن الناس ينقسمون إلى فريقين : فريق يحب ذلك الرجل وفريق لا يحبه . لأنه من العسير علينا أن نجد فرداً واحداً فى العالم لا يعرفه - ويقصد برنارد شو - ومن المفهوم أن من قرأ له أربعين أو خمسين رواية قد لا يغيب عن ذاكرته اسمه على الإطلاق ..

وليس من الهين أن ينسى الإنسان ما قيل عن برنارد شو من مفتريات وما أذيع عنه من أكاذيب . بل إن برنارد شو هو الوحيد الذى يذاع عنه أكبر قسط من المتناقضات . وكثير من الأدباء لا يزالون يستغلون اسمه إلى أبعد درجات الاستغلال ولا ضرب لذلك مثلاً فأقول إن كثيرين منهم عند ما يجدوا أن المستمعين بدأوا يملون ويتمهلون ويضيقون ذرعاً بالمتحدث سرعان ما يذكرون قولاً لبرنارد شو أو نكتة من نكاته اللاذعة تدخل عليهم السرور . وفى كثير من الأحيان يكون القول أو النكتة من صنعهم ومن محض اختلاقهم ...

إن قيمة المؤلف أو مقدرته لا تظهر إلا فى كتابته . وهذا حقيقة . قول لا يقبل المناقشة أو الجدل ، ولكننى أحب أن أضيف أنه يجب على كل ناقد ومطلع وكاتب أن يعرف المؤلف الذى ينوى الكتابة عنه ...

فلبرنارد شو رأى فى شكسبير ، وهو أفضل من شكسبير بكثير ... وقد يدعى

البعض أن مثل هذا القول دليل الغطرسة والكبرياء ، لأن شكسبير لم تخلق الاجيال أخاله بعد . وبرنارد شو عند ما يدعى أنه أفضل من شكسبير عذره في ذلك أنه عاش أكثر منه . بل ان كثيرين من الناس يعتقدون بأن « باكون » هو شكسبير أو أنه رجل آخر ذلك الذي كتب آثاره . وقد يكون هذا الرأي صحيحاً ، ولكن الذي يدعى بأنه أفضل من شكسبير يعده الناس اخرق ضعيف الحيلة . ولكنى عندما قابلت شو لأول مرة ، دهشت لوفرة أدبه وحسن سلوكه وضيافته للغرباء . جرت العادة أن يكون الضيف الصغير السن أكثر أدباً مع المضيف الشيخ ، ولكن برنارد شو كان على العكس تماماً . يصمم على فتح الباب ويجلسنى فى مقعدى ويساعدنى على ارتداء معطني وبرنارد شو لا يتكلم طوال الوقت أو يسيطر على الحديث كما يسيطر على المسرحيات فى كتاباته . وإن كان حديثه لا يخلو من الكلام عن نفسه . . . وحتى فى حديثه عن نفسه تجده متواضعاً حياً . . .

أذكر أنه فى إحدى الاجتماعات الهامة التى حضرها شو كشف لنا النقاب عن سر مهاجمته لشكسبير ، وأنه كان يفعل ذلك للقيمة العيش لا أكثر ولا أقل . . وهذا ما قاله بالحرف الواحد يومذاك « كان علينا أن نهاجم الدراما القديمة بكل قوائنا لتجد مسرحياتنا ورواياتنا مسرحاً جديداً . . . »

وبرنارد شو سريع النسيئة ، حاد الذكاء ، لا تتركه سرعة البديهة ولا تبرحه النسيئة المستملحة فى حديثه .

أخذت مرة صديق الجنرال « كيوى » لزيارته . وما إن جلس اليه صديق حتى ابتدأ يبدى إعجابه وإطنا به لبرنارد شو . لا سيما لحيته البيضاء وعيناه الزرقاوين وجهته العريضة ، وأنفه الدقيق وفمه وأسنانه . وكان الزائر على وشك الاسترسال فى مديحه عند ما فاجأه برنارد شو بهذا السؤال . . .

— أتعجبك أسناني ؟ إنها لا شك ستعجبك !

ثم مد يده وأخرج طقم أسنانه الصناعى وقدمه إلى الجنرال فى كفة يده . . . وقد أخذت الجنرال طبعاً المفاجأة ، وسكت على مضض . . ثم عاد وحاول أن يسأله عن سر قوته وحفظه لحياته رغم تقدم سنه ، فأجابه برنارد شو : بأن ذلك كان عليه سهلاً

ميسوراً ، فيجب عليك ألا تدخن أو تحتسى الخمر أو تأكل اللحم . أو تعرف النساء ،
وكان دور برنارد شو أن يسأل الجنرال كيوى سؤالاً أو سؤالين ، وأراد أن
يعرف ما الذى انتوى الجنرال كيوى عمله ، كرئيس أعلى للبعثة العسكرية الصينية
فى إنجلترا ، أثناء زيارته وإقامته فى بريطانيا ، فأجابه : كيوى ، بأن الهدف الاسمى
لهذه الزيارة أو الإقامة أن يحسن من العلاقات الإنجليزية الصينية . فأجابه برنارد شو
بسخرية المعمودة - هذا سيتم بسهولة . . لأن بريطانيا العظمى أحسن دولة للتعاون
مع الدول الأخرى ، ما دام هذا التعاون من صالحها مائة فى المائة !!

يقول كثير من الناس إن لبرنارد شو مزاج فاسد أو جوح . ويقول آخرون
إنه رجل غريب الأطوار ، ومن العسير عليك أن تعرف مزاجه عند ما تقابله
وتتحدث اليه . فقبل أن أظا أرض إنجلترا كنت دائماً أتخيل ذلك الرجل من صورة
رأيتها له سابقاً . وقد وقف على أم رأسه فى وضع هزلى ، وإذا كنت دائماً صديقاً للسير
ماكس بيربوم فإننى أعتقد أن برنارد شو يفعل ويقول دائماً عكس ما فعل . ولعل
مقابلتى الأولى له حققت هذا التنبؤ وأقرته . فقد قال لى إنه ذهب إلى أحد مسارح
الصين ورأى هنالك مائة شىء وشىء كانت تجذب أنظار الناس جميعهم لا سيما الغرباء
منهم . وكنت أتوقع منه هجوماً عنيفاً على مسارحنا وعاداتنا . ولكن رأيه حيرنى
لأنه لم يأت من الجهة التى كنت أنتظر أن يأتى منها . . .

إن هدوء برنارد شو ومثانة أخلاقه بددا ما كان عندي من شكوك وأوهام عن
مزاجه الحاد الذى أشيع عنه .

لقد أفادنى هذا الرجل بتجاربه ، وأضاف إلى معلوماتى الكثير . . و برنارد شو
فوق كل ذلك عالم ومفكر وفيلسوف . بل إنى أعده فيلسوفاً أكثر منه كاتب دراما .
وإن مسرحياته الحديثة لعسيرة الفهم على الجمهور إذا كانت موقعة بامضاء كاتب آخر
أو لرجل غير برنارد شو . وكلها تطفح بالأسرار الفلسفية والمجادلات الأفلاطونية
وتجد أشخاص هذه المناقشات والمجادلات من الملوك والمطارنة والعلماء والجنود

كلهم يتحدثون في لباقة وسرعة بديهة وذكاء لا تفوتهم الذكته كبرنارد شو نفسه ..
وبما أنه يرى الأشياء من الناحية الفلسفية أكثر مما نراها نحن ، لهذا نجد أن
شخصياته كلها شخصيات شاذة غريبة الأطوار. ويتسرب إلينا الفك في أن المؤلف
نفسه غريب الأطوار شاذ الرأي والتكوين ..

وقبل أن يصبح برنارد شو كاتباً ألعيا عظيمًا كان كفاحه أعظم وأعم ، وكانت أحسن
كتاباتة هي ما كتبها في بدء أيامه الأولى . بدأ كفاحه في كتابة الدراما والمسرحيات
وكلها اليوم تشهد بخلوده وتنطق بعظمته وعلو همته . ظل برنارد شو قرابة ربع قرن
من الزمان مجهولاً لا يقرأ له إنسان .. ولكن حيويته الدافقة وخروجه على التقاليد
ومعالجته لأهم الموضوعات التي شغلت الرأي العام ردحا طويلا من الزمن لفتت
إليه الأنظار وجعلت الناس تنهافت على مسرحياته يلتمسونها التهاما ...

وعند ما تقدم برنارد شو في السن وقد أنهكتة الحياة، والعمل المتواصل الشديد ،
ركن إلى الراحة والهدوء . فخلد في أذهان الناس وعدوه أكبر وأعظم كاتب الدراما
ظهر بعد شكسبير ...





برنارد شو فی بدء شیخوخته

عيد ميلاد سعيد

بقلم الديوس هكسلي

كان ايرازمس اكبر بائع في القرن السادس عشر . كما أن أوروبا كلها قرأت أعمال فولتير .

وكذلك استمع العالم وقرأ لجورج برناردشو .

وهكذا تظل الأعمال أو الآثار الخالدة على الدوام خالدة ، وتحتل في النفس مكانة كبيرة .

وكذلك كل من كان ذا مكانة في الهيئة الاجتماعية تجده دائماً محبوباً .

وايكن بما يؤسف له أن الناس لو استمعوا إلى نصائح ايرازمس لما وجدت الحروب الدينية طريقها إلى المجتمع الحديث .

ولو عملوا بما نصح به اليهم فولتير لما كانت هناك ثورة فرنسية ولاغزو بوناپارتي ، ولولم يصفقوا للمسرحيات برناردشو ويضحكوا ويصخبوا من كلماته ومقدماته اللاذعة ، واستمعوا إلى أقواله بحق ودرسوه دراسة وافرة لهان الأمر وسهل عليهم العسر .

إن التاريخ قليل بمعاقرته ، قليل بأفراذه الافذاذ الذين سمو بالفكر إلى أسمى مراتب الكمال .

فلندعو الله جميعاً أن يعيد على برناردشو أمثال هذا العيد السعيد ليلاً جنبات الدنيا من فيض حكمته الغزيرة التي لا تعرف حدوداً ولا تقف عند حاجز أو مانع .